الزراعية والمنتجة خصوصاً في السهول؛ مما هيّأ الفرص لتصاعد الدور الانتاجي للمناطق الجبلية كونها مناطق اكثر اماناً للانتاج والاستقرار من ناحية، ولظهور دور العائلات الاقطاعية العسكري في حماية المناطق الريفية من هجمات البدو، واعتماد الفلاحين عليهم في غياب حماية الدولة المباشرة من ناحية اخرى.

٤ ــ كان لوقوع نابلس على الممر الرئيسي الواصل بين استنبول ومكة، والمار بدمشق نابلس، والكرك، دور في دعم نفوذ هذه العائلات وشمولها لمناطق واسعة من فلسطين وشرق الاردن؛ فقد كانت إحدى المهام الرئيسية «للمالكانة» نابلس هي تجهيز قافلة الحج وحمايتها من دمشق حتى الكرك، مما خلق الفرص لوجود نوع من النفوذ على هذه المناطق مروراً بالقدس وبيسان وعجلون وغيرها من المناطق.

لقد فرض تفاعل هذه العوامل، ووجود المنطقة بالاساس ضمن إطار التشكيلة الاقطاعية، نوعاً محدداً من العلاقة بين السلطة المركزية والمناطق المختلفة، اهّل لخروج هذه العائلات وتصاعد نفوذها، واحتلالها المركز السياسي والاقتصادي الاول، ليس في مدينة نابلس فحسب، بل في كل الريف الشمالي وبعض مناطق وسط فلسطين ايضاً.

إذاً، فقد ظهرت العائلات الاقطاعية في نابلس وتمركزت في فترة كانت المنطقة تتعرّض فيها لهجمات متعددة من قوى مختلفة؛ مما ترك اثره واضحاً على صراع هذه العائلات فيما بينها بزيادة حدته في لحظات، وإذابة الصراع الداخلي في مواجهة الاعداء الخارجيين في لحظات اخرى. وكانت نابلس هي عاصمة المنطقة ومركز «المتسلّم» «والآلاي» طوال القرن الثامن عشر، وحتى الغزو المصري في الثلث الاول من القرن التاسع عشر.

وقد خضعت منطقة الشمال للسلطة العثمانية ضمن نظام مراتبي، وقع في اعلاه المتسلّم، ثم شيوخ النواحي (بلغ عددهم سبعة) ثم شيوخ القرى. ومع ان الوالي العثماني كان يعين شيوخ النواحي، إلا ان المتسلّم كان له دور كبير في اختيارهم لقدراته العسكرية ونفوذه السياسي في منطقته. وكانت الواجبات الاساسية للمتسلّم وشيوخ النواحي هي المحافظة على الامن بشكل عام، وضمان تجميع الضرائب في ميعادها المحدد. «ومن الملاحظ ان تعيين شيوخ النواحي كان يتم بالوراثة، بمعنى تعيين واحد من نفس عائلة الشيخ المخلوع، حتى ان اي محاولة لتغيير هذا الإطار كانت تجابه بالعنف»(٢).

في البداية، مُنحت «متسلّمية» نابلس لآل نمر، عام ١٧٢٨ م، لقاء مساعدتهم للسلطان العثماني في حروبه ضد روسيا، وجدّدت لهم، عام ١٧٥١ م، ثم بقيت معهم حتى عام ١٧٧٠ م، وقد بدأت الدولة العثمانية، بعد عام ١٧٧٠ م، تحاول ضرب نفوذ آل نمر، ضمن سياسة تبديل العائلات القوية دورياً حتى تستحيل إمكانية ثباتها واتساع نفوذها في المنطقة في مواجهة الدولة العثمانية. هذا بالاضافة إلى تحالف آل نمر المعلن مع الظاهر العمر ضد العثمانيين، فعزلت المتسلمية عن الآلاي، ووضعت آل نمر متسلمين على القدس، وعائلة طوقان على نابلس، حيث كان ظهور الاخيرة نتيجة لتصديها «البطولي» لهجمات الظاهر العمر اثناء محاولاته احتلال منطقة نابلس وضمها لنفوذه؛ وذلك بعد ان